إجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة ؛ فانها العِلْمُ الخبيث الذي يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لروحك الطفلة في ملائكيتها حين تساورُكَ الشهوات : « هذا ليس لي ؛ هذا لا ينبغي لي »

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفلُ الملائكيّ

وعِلمُ خسائس الحياة يجعل للانسان في كل خسيسةٍ نفساً تتعلقُ بها ، فيكون المكينُ بين نفسين وثلاثٍ وأربع ، الى ثلاثين وأربعين ، كلُّهن يتنازعنه فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبحُ بعضه بلاءً على بعض ، وتشغلُه الفضول ، فيعود لها كالزُّبلة لما ألقي فيها ، وَيُمْحَقُ في نفسه الطبيعيةِ حسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمْحَق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحِسِّ بها

هذه الأنفسُ الخيالية في هذا الانسان المنكود ، هي الأرواح التي يَنْفُخُهَا في مصائبه ، فتجعلها مصائبَ حيّةً تعيشُ في وجوده وتعمل فيه أعمالَها ، ولولاها لماتت في نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائب كثيرة

انظر بالروح الشاعرة ، تَرَ الكونَ كلَّه في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنةُ الطرب ، وانظر بالعقل العالم ، فلن ترى في الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء

وَمَدَى الروح جمالُ الكونِ كلِّه ؛ وَمَدَى العقل قطعةٌ من حجر ، أو عظمةٌ من حيوان ، أو نسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من معدن ، وما أشبهها

إجْهلْ جهلَك يا صاحبي ؛ ففي كل حُسْنٍ غَزَلٌ ، بشرط ألاّ تكونَ العاشق الطامع ، وإلاّ أَصَبْتَ في كل حسنٍ هَمًّا وَمَشْغَلة . . . !

* * *

قلتُ لنفسي : الى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمتُه عنكِ

وقالت لي النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذي كتمتَه عني . . . ؟

طنطا

٣ ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

المرحوم محمد بك المويلحي

نشأته ودراسته

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً بما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه فأكبّ على الكتب دأبها ومجفوّها . ولعل أكثر نظره إنما كان في كتب التاريخ والسير ، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لها في مواطن الاستشهاد فطنةً عجيبة ، الى دقائق دقيقة ، مما يعلّق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلّقها من يفطن اليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل بصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحبَ كذلك

أهل الظرف وأصحاب البداهة ، وشاركهم فى أسمارهم ، ودخل معهم فى مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيان من صدر شبابه ، يصقل له أبوه القول ، ويقرّب له مصطفى اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسج ، ويهديه الى مضارب العلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلمه بالبيان حلواً متيناً نيراً ، ووقع من فنون المعانى على أجلّها وأكرمها . ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كلّه الأديبُ التامّ

واحترف صنعة القلم ، واشترك فى تحرير جريدة المقطم بضع سنين على ما أظن . ولا أحسبه قد شارك أباه فى تحرير الصحف التى أخرجها فى عهد المرحوم الخديو اسماعيل ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد فى أرجح الظن ، من حمله القلم والله أعلم !

وكان أبوه ، رحمة الله عليهما ، كثير الاختلاف الى الآستانة مَثوَى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه فى بعض هذه الرحلات ، وقُلّد ابراهيم بك فى زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدقتنى ذاكرتى ؛ ففضى محمد فى الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر ، وآثر المقام فى إيطاليا دعا بابراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه فى بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما فى نابولى فى قصر اسماعيل بضع سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغةَ التليان

ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوربا ، إما موفداً من أبيه فى بعض مساعيه ، وإما متفرجاً متنزهاً . وله فى وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كان ينشر منجماً فى مصباح الشرق[1] وطاف كذلك بالبلاد السورية ، ووزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره فى جريدة المؤيد[2]

واستقرّ المويلحيان أخيراً فى مصر ما يبرحانها إلاّ للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة «مصباح الشرق» . وقدمت بك صفتها فى أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف فى داره لا يَلى عملاً عاماً : حتى عين فى سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الأدارة والسكرتارية فى ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد الى اعتكافه لا يتدلّى الى البلد إلاّ فى قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيب مجالستهم من الصحاب ، وظل كذلك الى الشكاة التى مات فيها ، عليه رحمة الله . وكانت وفاته فى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

أخلاق المويلحى وعاداته :

قبل أن أطرقَ هذا البابَ من سيرة الرجل يحسن بى أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتريه فى بعض الحديث مايشبه الحبسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ فى حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلا بعطّ عنقه ، كأنما يمرّى لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يلفت النظرَ فى خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرءَ من متعارف الناس ومصطلحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرُه الخاصّ فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالى أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجىّ ، ولو كان مما انعقد عليه اجماعُ الناس ، وإذا كنتُ قد نعتُّه (بالفيلسوف) فانما أعنى هذه الصفةَ فيه . فانني لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خلةَ هذا الرجل بحكم ملابستى له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء فى كثير من الأشياء لقد تبدو غريبةً حتى يُظَن أن فى طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أحيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لمطاوعة الناس فى كل ما يستوى من الأدراك للناس !

ثم لقد كان رجلاً يرجح عقلُه ذكاءَه . وإنه ليحتاج فى تفهُّم دقائق المعانى الى شىء من المطاولة والتدبير . على أنها بعد هذا تتّسق لذهنه مدركة ناضجة ، لا كما تخطر لحداد الذكاء (خطرةَ البرق بدا ثم اضمحلّ) !

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) فى آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية .

كذلك كان مما يلفت النظر فى شأن الويلحى أنه شديد الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف . ولقد يكون فى مجلس يجمع الصفوة من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فاذا هو يفتر وينقبض حتى يكاد (يوحش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخول فى زحمة الناس ، والتراثى للجماهير ، وما إلى هذا من مقتضيات الظهور

ومن أجل صفات هذا الرجل حدة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة الحمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبرم بالحياة مهما كرثه تصرف الحياة . ولقد يكثر المال فى يده فيبسطها ، الى ما يقرب من السرف فى النفقة فى حاجاته ، واصابة ما يحلو له من المتع واللذائذ . ولقد يرق المال فى يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً ، متجملاً فى عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة

كذلك كان من أجل صفاته الصدق فى القول ، ولقد عاشرته ما عاشرته ، فما أذكر والذى نفسى بيده ، أننى أحصيت عليه كذبة واحدة قط ، ولا من ذلك النوع الذى يتورط فيه المرء فى مصانعة الناس ومجاملتهم ، فان ألحت التقاليد عليه فى شىء من هذا سكت أو ورى . ولقد أذكر أنه قابل ولى الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان ، فسأله أصائم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب

* * *

ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديد العناية بالنظافة فى جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق فى كل شىء ، يحب الزهر ويكلف به ، ويحسن تأليفه وتصنيفه ، ولا يمس إلا أزكى العطر وأغلاه

وكان شديد الاحتفال للطعام ، مبالغاً فى التأنق فيه . ولربما طالع طاهيه المرات العديدة فى مطبخه ، يتقدم اليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع بتلك الصحفة كيت وكيت ، وهو بهذا حق خبير . فاذا قرب اليه طعامه اجتمع له اجتماع شهوان يلتذ به أيما التذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم فى تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

وكان رجلاً طبنًا ، كأن طول تمرينه فى النقد الكتابى قد طبعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملكته فيه ، فلا تراه يتخذ شيئاً فى أى سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونقد وتخير ، فما يكاد يخدع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يحب النكتة البارعة ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلس بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشىء للنكتة والمبتكر لها . ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاها بالتخريج والمط والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذلك منتهاه

ومهما يكن من شىء فان هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فاذا تحدث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما ينبغى أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الالحاد ولا الزيغ الى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الايمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فان رأيت منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألة جزئية من مسائل الدين ، فأحمل الأمر على مجرد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءه فى دار الجزاء !

عبد العزيز البشرى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ عدا أجرة البريد

ثمن مجموعة السنة الثانية (المجلد الأول) ٣٥ عدا أجرة البريد

وثمن كل منهما خارج القطر ٥٠